

القَصَصُ الدِّينِي
الحلقة الرابعة
العرب في أوربا

عَوْدَةُ الْعَرَبِ إِلَى غَرْبِ فَرَنْسَا

عبد الحميد جودة السحار

١٠

ماتَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ الدَّاحِلُ ، ذاكَ الرَّجُلُ الطَّوِيلُ
 النَّحِيلُ الْأَعُورُ ، الَّذِي أَسَّسَ بِعَزِيمَتِهِ مَاكَا عَرِيضًا
 لِبَنِي أُمَيَّةٍ فِي الْأَنْدَلُسِ ، بَعْدَ أَنْ زَالَ مُلْكُهُمْ مِنَ
 الْمَشْرِقِ . وَاسْتَخْلَفَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ ابْنَهُ هِشَامًا مِنْ
 بَعْدِهِ ؛ وَكَانَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ كَثِيرًا مَا يَسْأَلُ عَنْ ابْنَيْهِ :
 سُلَيْمَانَ وَهِشَامَ ، فَيُذَكِّرُ لَهُ أَنَّ هِشَامًا إِذَا حَضَرَ
 مَجْلِسًا امْتَلَأَ ذَلِكَ الْمَجْلِسُ أَدَبًا وَتَارِيخًا وَذِكْرًا لِأُمُورِ
 الْحَرْبِ وَمَوَاقِفِ الْأَبْطَالِ ، وَإِذَا حَضَرَ سُلَيْمَانُ
 مَجْلِسًا ، امْتَلَأَ سُخْفًا وَهَذْيَانًا ، فَيَكْبُرُ هِشَامُ فِي

عَيْنُهُ ، بِمَقْدَارِ مَا يَصْغُرُ سَلِيمَان .

كَانَ سَلِيمَانُ أَكْبَرَ أَبْنَائِهِ ، وَكَانَ يُحِبُّ لَهُ الرِّشَادَ .
وَلَكِنْ سَلِيمَانُ كَانَ فَارِغًا ، لَا يَمِيلُ إِلَّا لِلَّهِو ،
وَلَا يُحِبُّ مَجَالِسَ الْأَدَبِ .

قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ هِشَامُ يَوْمًا :

- لِمَنْ هَذَا الشَّعْرُ ؟

وَتَعْرِفُ فِيهِ مِنْ أَبِيهِ شِمَانًا وَمِنْ خَالِهِ وَمِنْ يَزِيدَ وَمِنْ حُجْرٍ
سِمَاحَةً ذَا مَعَبْرَ ذَا وَوَفَاءَ ذَا وَنَائِلَ ذَا إِذَا صَحَا وَإِذَا سَكِرَ

فَقَالَ هِشَامُ :

- يَاسِيدُ هُوَ لَا مَرِيءَ الْقَيْسِ ، مَلِكِ كِنْدَةَ ،

وَكَأَنَّهُ قَالَ فِي الْأَمِيرِ - أَعَزَّهُ اللَّهُ .

فَضَمَّهُ أَبُوهُ الْأَمِيرُ فَرِحَا ، وَأَمَرَ لَهُ بِإِحْسَانٍ كَثِيرٍ .

وَقَالَ لِسَلِيمَانَ عَلَى أَنْفَرَاد :

- لِمَنْ هَذَا الشَّعْرُ ؟

وأنشده البيتين .

فقال سليمانُ في زِراية :

— لأحدِ أجلافِ العرب ، أما لى شغلٌ غيرُ حفظِ

أقوالِ بعضِ الأعرابِ !؟

فأطرقَ عبدُ الرَّحْمَنِ ، وراح يرقُب ولديه ، فأيقنَ

أنَّ هِشامًا أفضلُ للإِمارةِ من سليمان ، فأوصى له

بالإِمارةِ بعده .

٢

صار هِشامُ أميرَ الأندلس ، فما كان حُكَّامُ

الأندلس يتلقَّبون بأَميرِ المؤمنينَ فى ذلك الوقت ؛

لأنَّ الخليفةَ العباسيَّ ، المتربِّعَ فى كرسىِّ الخلافةِ

ببغداد ، كان أمير المؤمنين ، وكان يُخْطَبُ باسمه
على المنابر .

كان هشامٌ أبيضَ أشهب ، مُشرباً بِحُمْرَةِ . بعينه
حول ، عاقلاً حازماً ذا رأى سديد ، مُحِبّاً لأهلِ
الخيرِ والصَّلاح ، راغباً في الجهادِ . اتَّبَعَ سُنَّةَ العدلِ
في رعيَّته فأحَبَّته ، وراح يتَّبَع في سياسةِ مُلكِه ،
سياسةَ عمرَ بنِ عبدِ العزيز ، فكان يَبْثُ العيونَ
والأرصادَ بينَ القرى والأمصار ، لِيُخْبِرُوهُ بِمُتَجَدِّدَاتِ
الأحوال ، حتَّى يقومَ بما يجبُ لها .

وجد أولَ ما استولى على المُلْك ، أنَّ الفتنَ
منتشرةً في البلاد ، وأنَّ عَصِيَّةَ الجاهليةِ الأولى ،
لا زالت تُسيطر على المجتمعِ الإسلاميِّ في الأندلس ،
فالبربرُ في عداوةٍ مع العرب ، والعربُ أنفُسُهُم

منقسمون إلى يمانيين ومُضريين ، والقلوب متنافرة ،
فعزم على أن يؤلف القلوب بالجهاد ، وأن يُعيد إلى
ملكته ما نقص منها من غاراتِ بين وشارلمان .

وذاع بين العامة أن المسلمين لا يقدرُونَ إلا على
قتال بعضهم بعضا ، وأفتى بعضُ الفقهاء بأنه لا يجبُ
دفعُ الخراجِ لأمرء لا يعرفون أن يُقاتلوا إلا أمةَ محمدؐ ،
فلم يُغضب ذلك هِشاما ، بل وجد فيه خدمةً
لأغراضه ، فأعلن الجهاد ، وأمر الناس أن ينفروا إلى
جبال البيرانية ، ليستعيدوا الأراضي التي خلصها
منهم ملوكُ فرنسا .

وقرىء منشورُ الأمير بالدعوة إلى الجهاد ،
وتحبيب الناس فيه في الجوامع ، فثارت حمية الناس ،
وانطلقوا إلى الجهاد ، وقد طويت العداوات ، التي

كانوا يَكُونُهَا بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ فِي صُدُورِهِمْ .
واجتمع المُجاهدون ، وكان عددهم كبيراً ، ولكنه لم
يبلغْ مثلاً الأعدادَ الكبيرة ، التي كانت تنفرُ أيامَ
الغزواتِ الأولى ، لأوّلِ الفتح ، فقد انقطعتِ
الأندلس عن العالمِ الإسلاميِّ الخارجيّ ، ولم يعدْ
راغبو الجهادِ من الشَّامِ أو مصرَ أو المغرب ، بقادرينَ
على أن يَنفِروا مع إخوانهم المجاهدينَ في الأندلس ،
لنصرة دينِ الله ، وإِعلاءِ كلمته .

٣

انطلق الجيشُ الإسلاميُّ بقيادة الوزير عبد الملك
ابن عبد الواحد بن مُغيث ، إلى كتالونيا ، لينقضَّ
منها على فرنسا ، ويحتاجَ أراضيها .

دخل العرب فرنسا ، سنة ٧٩٣ م - ١٧٧ هـ ،
وكانت جنود أكتيانية غازية في إيطاليا ، بقيادة
لويس ابن شارلمان ؛ فانطلق المسلمون إلى أربونة ،
وفتحوها ، وصالحوا أهلها على أن ينقلوا التراب من
سور أربونة ، إلى باب قصر الأمير بقرطبة ، ليتم منه
مسجد قرطبة ، الذي بدأ أبوه في بنائه ، فقد كان
الأمراء يفخرون بأن المساجد إنما بُنيت من الجهاد .
وزحف المسلمون إلى قرشونة ، فاستنفر غليوم ،
وکیل لويس بن شارلمان أثناء غيابه ، أمراء المملكة
وفرسانها ، فأقبل المسيحيون يحملون سلاحهم من
كل حدب وصوب ، ليدافعوا عن فرنسا ، وعن
دينهم ، المسلمين الذين جاءوا يحملون رسالة
جديدة .

والتقى الجمعان على ضفافِ نهر « أوربير » ، بين
قرقشونة وأربونة ؛ ودارت معركةٌ رهيبة ، استبسل
فيها الكونت غليوم ، ولكن ذهبَ استبسأله سُدى ،
فقد انتصرَ المسلمون ، وتقهقرَ الفرنسيُّون منهزمين ،
وغنمَ المسلمونَ غنائمَ لا تُحصى .

وسقطَ أحدُ قوادِ المسلمينَ صريعاً في هذه
المعركة ، مما جعلَ المسلمينَ يكتفونَ بهذا النصرِ ،
وبما وقعَ في أيديهم من سبى ، ولم يقتفوا أثرَ
المنهزمين ، ليقضوا عليهم .

وانتشرت أنباء هذا الانتصار ، فخرج الناسُ
 لاستقبال الجيشِ المظفر ، فرحينَ مسرورين ، فقد
 طال عهدُ الناسِ بالنصر ، منذ تلك الانتصاراتِ
 الأولى ، التي أحرزها طارقٌ وموسى ، وصناديدُ
 المسلمين .

وفرِح هشامٌ بذلك الفتح ، وباندحارِ جيشِ فرنسا
 أمامِ جيوشِهِ ، فسجدَ لله شكرا . وأصابَ خمسَ
 الغنائم ، فبلغَ خمسةً وأربعينَ ألفَ مثقالٍ من الذهب ،
 راح يُتم به جامعَ قرطبة ، الذي كان أبوه قد شرعَ
 في بنائه .

كان عبد الرحمن الداخلُ بدأ جامعَ قُرْطُبَة ، من غنائم الحروب ، فزادَ ذلك في حُرْمَة الجامع في نظرِ المسلمين . فلمّا بنى هِشامُ القسمَ الجديدَ من الجامع ، وجدَ المسلمين لا يُصلُّونَ إلا في القسمِ القديم ، فسألَ عن السَّببِ ؟ فقليل له :

- لأن هذا القسمَ بُنى من غنائمِ الجهاد .

فقال هِشام :

- والقسمَ الجديدُ بُنى من غنائمِ الجهاد أيضا .

وراح هشام يهتم بتعمير الأندلس ، فجدد قنطرة
 قرطبة ، التي كانت مضرب الأمثال في الروعة
 والهندسة ، وكان قد بناها السَّمْحُ بنُ مالك ، عاملُ
 عمر بن عبد العزيز على الأندلس .

وأحكم هشام بناءها ، وقال يوماً لأحد وزرائه :

— ما يقول أهل قرطبة عن القنطرة ؟

قال الوزير : « يقولون ما بناها الأمير إلا ليمضي

عليها إلى صيده وقنصه » .

كان هشام زاهداً ، ورعاً تقياً ، فسأه ذلك ،

وأقسم ألا يسلك عليها : ووفى بما حلف عليه ،

فلم يمرَّ عليها بعد .

وتوفيَّ رجلٌ في عهدِهِ ، وكان قد وصَّى أن يُفكَّ
أسيرٌ من المسلمين من تركته . فطلب ذلك ، فلم
يوجد في دار الأعداء أسيرٌ مسلمٌ يُفَدَى ، لقوَّةِ
المسلمين ، وضعفِ أعدائهم .

استتب الأمر لهشام وعلا ذكره ، وعهد بالأمر من بعده إلى ابنه الحكم . ولم تقر عينه ، فقد كان يخشى ثورة أخويه سليمان وعبد الرحمن بابنه . إنَّ سليمان أظهر عليه الخلاف بطليطلة ، يوم تولى الأمر ؛ ولحق به أخوه عبد الرحمن ، فحاربته وظفر به ، حتى دخل في طاعته . ولكنه ما لبث أن عاد إلى خلافه ، فحاصره بتدمير . فطلب سليمان من هشام العبور إلى غدوة البربر بأهله وولده ، فأجازه وأعطاه مالا جزيلا ، وأقام بغدوة المغرب . فما يُدرية إذا مات وأصبح الأمر للحكم ، أن يلتزم سليمان الطاعة ،

ولا يشور على ابنه ؟ كانت هذه الأفكار تطوف
برأسه ، ولكنه ما كان بقادر على أن يفعل شيئا .

كان هشام قد بعث في استدعاء المنجم الضبي ،
من وطنه : الجزيرة الخضراء ، إلى قرطبة ؛ وكان
ذلك في أول ولايته ، فلما أتاه خلا به ، وقال له :

- يا ضبي ! لست أشك أنه قد عناك من أمرنا ،
إذ بلغك ما لم ندع تحديد النظر فيه ، فأنشدك الله
ألا ما نبأتنا بما ظهر لك فيه .

واعتذر المنجم بأنه لم يرصد نجم الأمير ، فطلب
منه أن يفعل ؛ ثم أحضره بعد أيام ، فقال له :

- إن الذي سألتك عنه جد مني ، مع أني والله
ما أثق بحقيقته ، إذ كان من غيب الله ، الذي استأثر
به . ولكني أحب أن أسمع ما عندك فيه ، فالنفس
طلعة .

فقال المنجم :

- اعلم أيُّها الأمير ، أنَّه سوفَ يستقرُّ ملكك ،
سعيداً جدُّك ، قاهرًا لمن عاداك ؛ إلَّا أنْ مُدَّتْكَ فيه
فيما دلَّ عليه النظر ، تكونُ ثمانيةَ أعوامٍ أو نحوها .

فأطرق هِشامٌ ساعةً ، ثم رفعَ رأسه ، وقال :

- يا ضَبِّي ، ما أخوفنِي أنْ يكونَ النَّذيرُ كَلَمَنِي
بلسانِكَ . واللهِ لو أنَّ هذه المدةَ كانت في سجدةٍ
للهِ تعالى ، لقلت طاعة .

وكانَّما النَّذيرُ كَلَمَه بلسانِ الضَّبِّي ، فقد مات
هِشامٌ بعد ثمانيةَ أعوامٍ من ولايته ، وقد خَلَّفَ
الأندلسَ لابنَه الحكم .